الى آخر السورة واستدل بذلك الامام على انه رضى الله تعالى عنه أفضل الأمة وذكر ان في الآيات مايأبى قول الشيعة أنها في على كرم الله تعالى وجهه وأطال الكلام في ذلك وأتى بما لايخلو عن قيل وقال قوله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ جواب قسم مضمر أى وبالله لسوف يرضى والضمير فيه للاتقى المحدث عنه وهو وعد كريم ينيل جميع مايبتغيه على اكمل الوجوه وأجملها اذ به يتحقق الرضا وجوز الامام كون الضمير للرب تعالى حيث قال بعد ان فسر الجملة على رجوعه للاتقى وفيه عندى وجه آخر وهو ان المراد انه ما أنفق الا لطلب رضوان الله تعالى ولسوف يرضى الله تعالى عنه وهذا عندى أعظم من الاول لان رضا الله سبحانه عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه عز وجل وبالجملة فلابد من حصول الامرين كما قال سبحانه راضية مرضية انتهى والظاهر هو الاول وقد قرىء ولسوف يرضى بالبناء للمفعول من الارضاء وما أشار اليه في معنى راضية مرضية غير متعين كما سمعت وفي هذه الجملة كلام يعلم مما سيأتى قريبا ان شاء الله تعالى

سورة الضحى

مكية وآيها احدى عشرة آية بلا خلاف ولما ذكر سبحانه فيما قبلها وسيجنبها الاتقى وكان سيد الاتقين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عقب سبحانه ذلك بذكر نعمه عز وجل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وقال الامام لما كانت الاولى سورة أبى بكر رضى الله تعالى عنه وهذه سورة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عقب جل وعلا بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم أن لا واسطة بين رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والصديق رضى الله تعالى عنه وتقديم سورة الصديق على سورته عليه الصلاة والسلام لا يدل على أفضليته منه صلى الله تعالى عليه وسلم ألا ترى أنه تعالى أقسم أولا بشيء من مخلوقاته سبحانه ثم أقسم بنفسه عز وجل في عدة مواضع منها السورة السابقة على ماعلمت والحد قد تتقدم بين يدى السادة وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ولا يضر النور تأخره عن أغصانه ولا السنان كونه في أطراف مرانه ثم أن ما ذكره زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * وَالضُّحَىٰ ﴾ تقدم الكلام فيه والمراد به هنا وقت ارتفاع الشمس الذى يلى وقت بروزها للناظرين دون ضوئها وارتفاعها لانه أنسب بما بعد وتخصيصه بالاقسام به لانه شباب النهار وقوله فيه قوة غير قريبة من ضدها . ولذ عد شرفا يومياً للشمس وسعدا ولانه على ما قالوا الساعة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام والقى فيه السحرة سجدا لقوله تعالى وأن يحشر الناس ضحى ففيه مناسبة للمقسم عليه وهو انه تعالى لم يترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يفارقه الطافه تعالى وتكليمه سبحانه وقيل المراد به النهار كما في قوله تعالى أن يأتيهم باسنا ضحى واعترض بالعرق فانه وقع هناك في مقابلة البيات وهو مطلق الليل وهنا في مقابلة الليل مقيدا معنى باشتداد ظلمته فالمناسب أن يراد به وقت ارتفاعه وقوة اضاءته وأجيب بمنع دلالة القيد على الاشتداد وستسمع ان شاء الله تعالى مافي ذلك وأيا ما كان فالظاهر أن المراد الجنس أى وجنس الضحى ﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ أى وجنس الليل ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أى سكن أهله على انه من السجو وهو السكون مطلقا كما قال غير واحد والاسناد مجازى أو هو على تقدير المضاف كما قيل ونحوه ماروى عن قتادة أى سكن الناس والاصوات فيه وهذا يكون في الغالب فيما بين طرفيه أو بعد مضى برهة من أوله أو ركد ظلامه من سجا البحر سكنت أمواجه قال الاعشى

وما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم ☆ وبحرك ساج لايوارى الدعامصا

فالسجو قيل على هذا في الاصل سكون الامواج ثم عم والمراد بسكون ظلامه عدم تغيره بالاشتداد والتنزل أى فيما يحس ويظهر وذلك اذا كمل حسا بوصول الشمس الى سمت القدم وقبيله وبعيده وصرح باعتبار الاشتداد ابن الاعرابى حيث قال سجا الليل اشتد ظلامه وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه قال أى اذا أقبل فغطى كل شيء وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس تفسير سجا باقبل بدون ذكر التغطية وأخرجها وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا أنه قال سجا اذا ذهب وكلا التفسيرين خلاف المشهور وشاع ليل ساكن اوساج لما لا ريح فيه ووصفه بذلك أعنى السكون قيل على الحقيقة كما اذا قيل ليل لا ريح فيه ولايقال ان الساكن هو الريح بالحقيقة لان السكون عليها حقيقة محال لانه هواء متحرك ثم انهم يقولونه لما لا ريح فيه لا لما سكن ريحه والتحقيق أن يقال ان السكون على تفسيريه أعنى عدم الحركة عما من شأنه الحركة أو كونين في حيز واحد لايصح على الليل لانه زمان خاص لكن لما كان سكون الهواء بمنزلة عدم له في العرف العامى لعدم الاحساس او لتضمنه عدم الريح لاالهواء قيل ليل ساج وساكن وصف الليل على الحقيقة أى لاسناد فيه الى غير ملائم على انه يحتمل ان يجعل السكون بهذا المعنى حقيقة عرفية وجوز حمل مافي الآية على هذا الشائع ولعل التقييد بذلك لان الليل الذى لا ريح فيه أبعد عن الغوائل وقد ذكر بعض الفقهاء ان الريح الشديدة ليلا عذر من أعذار الجماعة ونقل عن قتادة ومقاتل ان المراد بالضحى هو الضحى الذى كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج ومن الناس من فسر الضحى بوجهه صلى الله تعالى عليه وسلم والليل بشعره عليه الصلاة والسلام كما ذكر الامام وقال لا استبعاد فيه وهو كما ترى ومثله ما قيل الضحى ذكور أهل بيته عليه الصلاة والسلام انائهم وقال الامام يحتمل أن يقال الضحى رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم والليل زمان احتباس الوحى فيه لان في حال النزول حصل الاستئناس وفى زمان الاحتباس حصل الاستيحاش أو الضحى نور علمه تعالى الذى يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه تعالى الذى به يستر جميع العيوب أو الضحى اقبال الاسلام بعد ان كان غريبا والليل اشارة الى أنه سيعود غريبا أو الضحى كمال العقل والليل حال الموت أو الضحى علانيته عليه الصلاة والسلام التى لا يرى الخلق عليها عيبا والليل سره صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعلم عالم الغيب عليها عيبا انتهى ولايخفى أنه ليس من التفسير في شيء وباب التأويل والاشارة يدخل فيه أكثر من ذلك وتقديم الضحى على الليل بناء على ما قلنا أولالرعاية شرفه لما فيه من ظهور زيادة النور وللنور شرف ذاتى على الظلمة لكونه وجوديا أو لكثرة منافعه أو لمناسبته لعالم الملائكة فانها نورانية وتقديم الليل في السورة السابقة لما فيه من الظلمة التى هي لعدميتها أصل للنور الحادث بازالتها لاسباب حادثة وقيل تقديمه هناك لان السورة في أبى بكر وهو قد سبقه كفر وتقديم الضحى هنا لان السورة في رسول الله عليه الصلاة و السلام وهو صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسبقه ذلك وتخصيصه تعالى الوقتين بالاقسام قيل ليشير سبحانه بحالهما الى حال ما وقع له عليه الصلاة والسلام ويؤيد عز وجل نفى ما توهم فيه فكأنه تعالى يقول الزمان ساعة فساعة ساعة ليل وساعة نهار ثم تارة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار وأخرى بالعكس فلا الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى بل كل لحكمة وكذا أمر الوحى مرة انزال وأخرى حبس فلا كان الانزال عن هوى ولا الحبس عن قلى بل كل لحكمة وقيل ليسلى عز وجل بحالهما حبيبه عليه الصلاة والسلام كأنه سبحانه يقول انظر الى هذين المتجاورين لا يسلم أحدهما من الآخر بل الليل يغلب تارة والنهار أخرى فكيف تطمع أن تسلم من الخلق والقولان مبنيان على أن المراد بالضحى

النهار كله وبالليل اذا سجى جميع الليل وتخصيص الضحى على ما سمعت اولا لما سمعت وتخصيص الليل بناء على أن المراد وقت اشتداد الظلمة قيل لانه وقت خلو المحب بالمحبوب والامن من كل واش ورقيب وقال الطيبي طيب الله تعالى ثراه في ذلك أنه تعالى أقسم له صلى الله تعالى عليه وسلم بوقتين فيهما صلاته عليه الصلاة والسلام التي جعلت قرة عينه وسبب مزيد قربه وأنسه أما الضحى فلما رواه الدار قطني في المجتبى عن ابن عباس مرفوعا كتب على النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها وأما الليل فلقوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك ارغاما لاعدائه وتكذيبا لهم في زعم قلاه وجفائه فكأنه قيل وحق قربك لدينا وزلفاك عندنا انا اصطفيناك وماهجرناك وقلياناك فهو كقوله ☆ وثنا ياك انها اغريض ☆ وهو مما تستطيبه أهل الاذواق ويمكن أن يكون الاقسام بالليل على ما نقل عن قتادة من باب وثنا ياك ايضا وكذا الاقسام بهما على بعض الاوجه المارة كما لا يخفى وعلى كون المراد بالضحى الوقت المعروف من النهار وبالليل جميعه قيل ان التفرقة الاشارة الى ان ساعة من النهار توازي جميع الليل كما ان النبي عليه الصلاة والسلام يوازي جميع الانبياء عليهم السلام والاشارة لكون النهار وقت السرور والليل وقت الوحشة والغم الى أن هموم الدنيا وغمومها أدوم من سرورها وقد روى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت عن يساره غمامة فنادت ماذا أمطر فامرت أن تمطر الغموم والاحزان فامطرت مائة سنة ثم انكشفت فامرت مرة أخرى بذلك وهكذا الى اتمام ثلثمائة سنة ثم أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء فنادت ماذا أمطر فامرت أن تمطر السرور ساعة فلذا ترى الغموم والاحزان أدوم من المسار في الدنيا والله تعالى أعلم بصحة الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ الخ جواب القسم وودع من التوديع وهو في الاصل من الدعة وهو أن تدعو للمسافر بان يدفع الله تعالى عنه كآبة السفر وأن يبلغه الدعة وخفض العيش كما أن التسليم دعاء له بالسلامة ثم صار متعارفا في تشييع المسافر وتركه ثم استعمل في الترك مطلقا وفسر به هنا أي ماتركك ربك وفي البحر والكشاف التوديع مبالغة في الودع أي الترك لان من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك قيل وعليه يلزم أن يكون المنفي الترك المبالغ فيه دون أصل الترك مع أن الظاهر نفي ذلك فلا بد من أن يقال انه انما نفى ذلك لانه الواقع في كلام المشركين الذي نزلت له الآية أو أن المبالغة تعود على النفي فيكون المراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة وقد ذكروا نظير هذين الوجهين في قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد فتدبر وقيل ان المعنى ماقطعك قطع المودع على أن التوديع مستعار استعارة تبعية للترك وفيه من اللطف والتعظيم مالا يخفى فان الوداع انما يكون بين الاحباب ومن تعز مفارقته كما قال المتنبي

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا ☆ فلم أدر أي الظاعنين أشيع

وحقيقة التوديع المتعارف غير متصورة ههنا وتعقب بانه على هذا لا يكون ردا لما قاله المشركون لانهم لم يقولوا ودعه ربه على هذا المعنى كيف وهم بمعزل عن اعتقاد كونه عليه الصلاة والسلام بالمحل الذي هو صلى الله تعالى عليه وسلم فيه من ربه سبحانه وقيل في الجواب انه يجوز أن يدل ودعه ربه على ذلك الا انهم قائلهم الله تعالى قالوه على سبيل التهكم والسخرية وحين ردعليهم قصدما يشعر به اللفظ على التحقيق وقيل ان الترك مطلق في كلامهم والظاهر من حالهم أنهم لم يريدوا الماهية من حيث هي ولا من حيث تحققها في ضمن مالا يخل بشريف مقامه عليه الصلاة والسلام بل الماهية من حيث تحققها في ضمن مايخل بذلك ولما كان المقصود ايناسه صلى الله تعالى عليه وسلم وازالة وحشته عليه الصلاة والسلام جيء بما يتضمن نفي مازعموه على أبلغ وجه كانه قيل ان هذا

النوع الغير المخل بمقامك من الترك لم يكن فضلا عما زعموه من الترك المخل بعزيز مقامك وعندى أن الظاهر ان ذلك القول باى معنى كان صادر على سبيل التهكم اذا كان المراد بالرب هو الله عز وجل وكان القائل من المشركين كما لايخفى على المتأمل وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبى عبلة ما ودعك بالتخفيف وهي على ماقال ابن جنى قراءة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وخرجت على ان ودع مخفف ودع ومعناه معناه قال في القاموس ودعه كوضعه وودع بمعنى وقيل ليس بمخففة بل هو فعل برأسه بمعنى ترك وانه يعكر على قول النحاة أماتت العرب ماضى يدع ويذر ومصدرهما واسم فاعلهما واسم مفعولهما واستغنوا بما يترك من ذلك وفي المغرب ان النحاة زعموا ان العرب أماتت ذلك والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات وقرأ ماودعك وقال أبو الاسود

ليت شعرى عن خليلى ماالذى ✡ غاله في الحب حتى ودعــه

ومثله قول آخر وثم ودعنا آل عمرو وعامر ✡ فرائس أطراف المثقفة السمر

وهو دليل أيضاً على استعمال ودع وهو بمعنى ترك المتعلق بمفعولين فلا تغفل وفي الحديث اتركوا الترك ماتركوكم ودعوا الحبشة ماودعوكم وفي المستوفي أن كل ذلك قد ورد فى كلام العرب ولا عبرة بكلام النحاة واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل نعم وروده نادر وقال الطيبي بعد أن ذكر وروده نظماً ونثراً انما حسن هذه القراءة الموافقة بين الكلمتين يعنى هذه وما بعدها كما فى حديث الترك والحبشة لان رد العجز على الصدر وصنعة الترصيع قد جبرا منه وقيل ان القائلين انما قالوا ودعه ربه بالتخفيف فنزلت فيكون المحسن له قصد المشاكلة لما قالوه وهم تكلموا بغير المعروف طيرة منهم كان غير المعروف من اللفظ مما يتشاءم به من الفأل الردىء أو انهم لما قصدوا السخرية حسن استعمال اللفظ وقد قالوا يحسن استعمال الالفاظ الغريبة ونحوها في الهجاء فلا يبعد أن يكون في السخرية كذلك والحق انه بعد ثبوت وروده لايحتاج الى تكلف محسن له والظاهر أن المراد بالرب هو الله عز وجل وفي التعبير عنه بعنوان الربوبية واضافته الى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم من اللطف مالا يخفى فكانه قيل ماتركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك على سبيل التدريج كما لك اللائق بك ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أى وما أبغضك وحذف المفعول لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وان كانت في كلام منفى لطفا به صلى الله تعالى عليه وسلم وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام أو لنفى صدوره عنه عز وجل بالنسبة اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ولاحد من أصحابه ومن أحبه صلى الله تعالى عليه وسلم الى يوم القيامة أو للاستغناء عنه بذكره من قبل مع أن فيه مراعاة للفواصل واللغة المشهورة في مضارع قلى يقلى كيرمى وطيء تقول يقل بفتح العين كيرضى وتفسير القلى بالبغض شائع وفي القاموس من الواوى قلا زيدا قلا وقلاه أبغضه ومن اليائى قلاه كرماه ورضيه قلى وقلاء ومقلية أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه أو قلاه في الهجر وقليه في البغض وفي مفردات الراغب القلى شدة البغض يقال قلاه يقلوه ويقليه فمن جعله من الواوى فهو من القلو أى الرمى من قولهم قلت الناقة براكبها قلوا وقلوت بالقلة فكان المقلو هو الذى يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله ومن جعله من اليائى فمن قليت البسر والسويق على المقلاة انتهى وبينهما مخالفة لاتخفى وعلى اعتبار شدة البغض فالظاهر ان ذلك فى الآية ليس الا لانه الواقع في كلامهم قال المفسرون أبطأ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال المشركون قد قلاه ربه وودعه فانزل الله تعالى ذلك وأخرج الحاكم عن زيد ابن أرقم قال لما نزلت تبت يدا أبى لهب الخ قيل لامرأة أبى لهب أم جميل ان محمداً صلى الله تعالى عليه

وسلم قد هجاك فاتته عليه الصلاة والسلام وهو صلى الله تعالى عليه وسلم جالس في الملا فقالت يا محمد علام تهجونى قال انى والله ما هجوتك ماهجاك الا الله تعالى فقالت هل رأيتنى أحمل حطبا أوفى جيدى حبلا من مسد ثم انطلقت فمكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لاينزل عليه فاتته فقالت ماارى صاحبك الاقد ودعك وقلاك فانزل الله تعالى ذلك وأخرج الترمذى وصححه وابن أبى حاتم واللفظ له عن جندب البجلى قال رمى صلى الله تعالى عليه وسلم بحجر في أصبعه فقال ✡ ماأنت الا اصبع دميت ✡ وفي سبيل الله مالقيت ✡ فمكث ليلتين أو ثلاثا لايقوم فقالت له أمرأة ما أرى شيطانك الا قد تركك وفي رواية للترمذى أيضا والامام احمد والبخارى ومسلم والنسائى وجماعة بلفظ اشتكى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فانزل الله تعالى والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وما قلى وليس فيه حديث المرأة ولا الحجر والرجز وذلك لا يطعن في صحته وقال جمع من المفسرين أن اليهود سألوه عليه الصلاة والسلام عن اصحاب الكهف وعن الروح وعن قصة ذى القرنين فقال عليه الصلاة والسلام ساخبركم غدا ولم يستثن فاحتبس عنه الوحى فقال المشركون ما قالوا فنزلت وقيل ان عثمان اهدى اليه صلى الله تعالى عليه وسلم عنقود عنب وقيل عذق تمر فجاء سائل فاعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه اليه عليه الصلاة والسلام ثانيا ثم عاد السائل فاعطيه وهكذا ثلاث مرات فقال عليه الصلاة والسلام ملاطفا لاغضبان أسائل أنت يافلان ام تاجر فتأخر الوحى اياما فاستوحش فنزلت ولعلهم ايضا قالوا ماقالوا واخرج ابن ابى شيبة في مسنده والطبرانى وابن مردويه من حديث خولة وكانت تخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان جروا دخل تحت سرير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمات ولم نشعر به فمكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة أيام لاينزل عليه الوحى فقال ياخولة ماحدث في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل لايأتينى فقلت يانبى الله ماأتى علينا يوم خيرمنا اليوم فاخذ برده فلبسه وخرج فقلت في نفسى لوهيأت البيت وكنسته فاهويت بالمكنسة تحت السرير فاذا بشيء ثقيل فلم أزل به حتى بدالى الجرو ميتا فاخذته بيدى فالقيته خلف الدار فجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ترعد لحيته وكان اذا نزل عليه الوحى أخذته الرعدة فقال ياخولة دثرينى فانزل الله تعالى والضحى والليل الى قوله سبحانه فترضى وهذه الرواية تدل على أن الانقطاع كان أربعة أيام وعن ابن جريج انه كان اثنى عشر يوما وعن الكلبى خمسة عشر يوما وقيل بضعة عشر يوما وعن ابن عباس خمسة وعشرين يوما وعن السدى ومقاتل أربعين يوما وأنت تعلم أن مثل ذلك مما يتفاوت العلم بمبدئه ولايكاد يعلم على التحقيق إلا من عنده عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وفي بعض الروايات مايدل على أن قائل ذلك هو النبى عليه الصلاة والسلام فعن الحسن انه قال ابطأ الوحى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لخديجة ان ربى ودعنى وقلانى يشكو اليها فقالت كلا والذى بعثك بالحق ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة الا وهو سبحانه يريد أن يتمها لك فنزلت واستشكل هذا بأنه لا يليق بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يظن ان الله تعالى شأنه ودعه وقلاه وهل الا نحو من العزل وعزل النبى عن النبوة غير جائز في حكمته عز وجل والنبى عليه الصلاة والسلام أعلم بذلك ويعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا ان ابطاء الوحى وعكسه لا يخلو كل منهما عن مصلحة وحكمة وأجيب بأن مراده عليه الصلاة والسلام ان صح ان يجر بها ليعرف قدر علمها أو ليعرف الناس ذلك فقال ما قال صلى الله تعالى عليه وسلم بضرب من التأويل كان يكون قد قصد ان ربى ودعنى وقلانى بزعم المشركين أو ان معاملته سبحانه اياى بابطاء الوحى تشبه صورة معاملة المودع والقالى وانت تعلم ان هذه الرواية شاذة لايعول عليها ولا يلتفت اليها فلا ينبغى انعاب الذهن بتاويلها

ونحوها ما دل على أن قائل ذلك خديجة رضي الله تعالى عنها أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عروة قال ابطا جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة أرى ربك قد قلاك مما أرى من جزعك فنزلت والضحى والليل الى آخرها والقول بانها رضى الله تعالى عنها أرادت ان هذا الجزع لا ينبغي ان يكون الا من قلى ربك اياك وحاشى اى يقلاك فما هذا الجزع بعيد غاية البعد والمعول ما عليه الجمهور وصحت به الاخبار ان القائل هم المشركون وانه عليه الصلاة والسلام انما أحزنه بمقتضى الطبيعة البشرية تعييرهم وعدم رؤية جبريل عليه السلام مع مزيد حبه اياه وفي بعض الآثار انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام ما جئتني حتى اشتقت اليك فقال جبريل عليه السلام كنت أنا اليك اشوق ولكني عبد مأمور وتلا وما نتنزل الا بامر ربك وفي رواية انه عاتبه عليهما الصلاة والسلام فقال أما علمت انا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة وراوى هذا يروى ان السبب في ابطاء الوحى وجود جرو في بيته عليه الصلاة والسلام والروايات في ذلك مختلفة وجوز بعضهم أن يكون الابطاء لتجمع الاسباب ثم أنه قد زعم بعض بناء على بعض الروايات السابقة جواز أن يكون المراد بربك في ماودعك ربك دون ما بعد صاحبك والمراد به جبريل عليه السلام وهو كما ترى وحيث تضمن ما سبق من نفي التوديع والقلى انه عز وجل لا يزال يواصله عليه الصلاة والسلام بالوحى والكرامة في الدنيا بشر صلى الله تعالى عليه وسلم بان ما سيؤتاه في الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ لما انها باقية صافية عن الشوائب على الاطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما أوتي عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وان كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل لكنه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض القادحة في تمشية الاحكام مع أنه عند ما أعد له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يوم الجمع يوم يقوم الناس لرب العالمين وكون أمته صلى الله تعالى عليه وسلم شهداء على سائر الامم ورفع درجات المؤمنين واعلاء مراتبهم بشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارات وتقصر دونها الاشارات بمنزلة بعض المبادى بالنسبة الى المطالب كذا في الارشاد والاختصاص الذي تقتضيه اللام قيل اضافي على معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بخيرية الآخرة دون من آذاه وشمت بتأخير الوحى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين كيف وقد علم بالضرورة ان الخير المعد له عليه الصلاة والسلام خير من المعد لغيره على الاطلاق ويكفي في ذلك اختصاص المقام المحمود به صلى الله تعالى عليه وسلم على ان اختصاص اللام ليس قصريا كما قرر في موضعه وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا والاولى على الدار الاولى وهي الدنيا هو الظاهر المروى عن أبي اسحق وغيره وقال ابن عطية وجماعة يحتمل ان يراد بهما نهاية أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وبدايته فاللام فيهما للعهد أو عوض عن المضاف اليه أى لنهاية أمرك خير من بدايته لانزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة وفي بعض الاخبار المرفوعة ما هو أظهر في الاول أخرج الطبراني في الاوسط والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرضت على ما هو مفتوح لامتي بعدي فسرني فانزل الله تعالى وللآخرة خير لك من الاولى ثم ان ربط الآية بما قبلها على الوجه الذي سمعت هو مما اختاره غير واحد من الاجلة وجوز أن يقال فيه انه لما نزل ما ودعك ربك وما قلى حصل له عليه الصلاة والسلام به تشريف عظيم فكأنه صلى الله تعالى عليه وسلم استعظم ذلك فقيل له وللآخرة خير لك من الاولى على معنى ان هذا التشريف وان كان عظيما الا ان مالك عند الله تعالى في الآخرة خير وأعظم

وجوز أيضا أن يكون المعنى أن انقطاع الوحي لا يجوز ان يكون لما يتوهمون لانه عزل عن النبوة وهو مستحيل في الحكمة بل أقصى ما في الباب أن يكون ذلك لانه حصل الاستغناء عن الرسالة وذلك امارة الموت فكأنه تعالى قال انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت لكن الموت خير لك فان مالك عند الله تعالى في الآخرة أفضل ممالك في الدنيا وهذا كما ترى دون ما قبله بكثير والمتبادر مما قرروه ان الجملة مستانفة واللام فيها ابتدائية وقد صرح جمع بانها كذلك في قوله تعالى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وقالوا فائدتها تاكيد مضمون الجملة وبعدها مبتدأ محذوف أي ولانت سوف يعطيك الخ وأورد عليه أن التاكيد يقتضي الاعتناء والحذف ينافيه ولذا قال ابن الحاجب ان المبتدأ المؤكد باللام لا يحذف وان اللام مع المبتدأ كقد مع الفعل وان مع الاسم فكما لا يحذف الفعل والاسم ويبقيان بعد حذفهما كذلك لا يحذف المبتدا وتبقى اللام وانه يلزم التقدير والاصل عدمه وان اللام لتخلص المضارع الذي في حيزها للحال كناً كيد مضمون الجملة وهو هنا مقرون بحرف التنفيس والتأخير فيلزم التنافي ورد بان المؤكد الجملة لا المبتدا وحده حتى ينافي تأكيده حذفه وكلام ابن الحاجب ليس حجة على الفارسي وأمثاله وان يحذف معها الاسم كثيراً كما ذكره النحاة وكذا قد يحذف بعدها الفعل كقوله

أزف الترحل غير أن ركابنا ✡ لما تزل برحالنا وكان قد

مع أنه لو سلم فقد يفرق كما قال الطيبي بين أن وقد وهذه اللام بانهما يؤثران في المدخول عليه مع التأكيد بخلاف هذه اللام فان مقتضاها ان تؤكد مضمون الجملة لا غير وهو باق وان حذف المبتدا فالقياس قياس مع الفارق والنحويون يقدرون كثيراً في الكلام كما قدروا المبتدا في نحو قمت واصك عينه وهو لاجل الصناعة دون المعنى كما فيما نحن فيه واللام المؤكدة لانسلم انها تخليص المضارع للحال أيضا بل هي لمطلق التأكيد فقط ويفهم معها الحال بالقرينة لانه أنسب بالتأكيد وعلى تسليم انها تخليصه للحال أيضا يجوز أن يقال انها تجردت للتاكيد هنا بقرينة ذكر سوف بعدها والمراد تأكيد المؤخر أعني الاعطاء لا تاكيد التأخير فالمعنى ان الاعطاء كائن لامحالة وان تاخر لحكمة وعلى تسليم انها للامرين ولا تجرد يجوز ان يقال تزل المستقبل أعني الاعطاء الذي يعقبه الرضا لتحقق وقوعه منزلة الواقع الحالي نظير ماقيل في قوله تعالى ان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة وقيل يحسن هذا جدا فيما نحن فيه على القول بان الاعطاء قد شرع فيه عند نزول الآية بناء على أحد أوجهها الآتية بعد ان شاء الله تعالى وذهب بعضهم بان اللام الاولى للقسم وكذا هذه اللام وبقسميتها جزم غير واحد فالواو عليه للعطف فكلا الوعدين داخل في المقسم عليه ويكون الله تعالى قد أقسم على أربعة أشياء اثنان منفيان واثنان مثبتان وهو حسن في نظري واعترض بان لام القسم لاتدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة فلو كانت للقسم لقيل لسوف يعطيك ربك ولا يخفى ان هذا أحد مذهبين للنحاة والآخر أنه يستثنى ما قرن بحرف تنفيس كما هنا فني المغني انه تجب اللام وتمتنع النون فيه كقوله

فوربي لسوف يجزي الذي ✡ اسلف المرء سيئاً أو جميلا

وكذا مع فصل معمول الفعل بين اللام والفعل نحو ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون ومع كون الفعل للحال نحو لاقسم وقد يمتنعان وذلك مع الفعل المنفي نحو تالله تفتؤ وقد يجبان وذلك فيما بقي نحو تالله لاكيدن أصنامكم وعليه لايتجه الاعتراض مع ان الممنوع بدون النون في جواب القسم لافي المعطوف عليه كما هنا فانه يغتفر في التابع مالا يغتفر في المتبوع وانما ذكرت اللام تأكيدا للقسم وتذكيرا به وبالجملة هذا الوجه أقل دغدغة من الوجه السابق ولا يحتاج فيه الى توجيه جمع اللام مع سوف اذ لم يقل أحد من

علماء العربية بان اللام القسمية مخلصة المضارع للحال كما لايخفى على من تتبع كتبهم وظاهر كلام الفاضل الكلنبوى ان كلا من اللامين موضوع للدلالة على الحال ووجه الجمع على تقدير كونها في الآية قسمية بانها محمولة على معناها الحقيقى وسوف محمولة على تأكيد الحكم ولذا قامت مقام احدى النونين عند أبى على الفارسى وقد أطال رحمه الله تعالى الكلام فيما يتعلق بهذا المقام وأنى على غزارة فضله بما يستبعد صدوره من مثله وقال عصام الدين الاظهر ان جملة ماودعك حالية أى ماودعك ربك وماقلاك والحال ان الآخرة خير لك من الاولى وأنت تختارها عليها ومن حاله كذلك لايتركه ربه ففيه ارشاد للمؤمنين الى ماهو ملاك قرب العبد الى الرب عز وجل وتوبيخ للمشركين بما هم فيه من التزام أمر الدنيا والاعراض عن الآخرة وحينئذ معنى قوله سبحانه ولسوف يعطيك انه سوف يعطيك الآخرة ولا يخفى حينئذ كمال اشتباك الجمل انتهى وفيه ان دخول اللام عليها مع دخوله على الجملة بعدها وسبقهما بالقسم يبعد الحالية جداً وأيضا المعنى ذكره على تقديرها غير ظاهر من الآية وكان الظاهر عليه عندك بدل لك كما لايخفى عليك واختلف في قوله تعالى ولسوف الخ فقيل هو عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله عزوجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الاولين والآخرين وظهور الامر واعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره صلى الله تعالى عليه وسلم وفي أيام خلفائه عليه الصلاة والسلام وغيرهم من الملوك الاسلامية وفشو الدعوة والاسلام في مشارق الارض ومغاربها ولما ادخر جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الكرامات التى لايعلمها إلاهو جل جلاله وعم نواله وقيل عدة بما أعطاه سبحانه وتعالى في الدنيا من فتح مكة وغيره والجمهور على انه عدة أخروية فاخرج ابن أبى حاتم عن الحسن انه قال هي الشفاعة وروى نحوه عن بعض أهل البيت رضى الله تعالى عنهم أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال قلت لابى جعفر محمد بن على بن الحسين على جدهم وعليهم الصلاة والسلام أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها أهل العراق أحق هي قال أى والله حدثنى محمد بن الحنفية عن على كرم الله تعالى وجهه ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال اشفع لامتى حتى ينادى ربى ارضيت يامحمد فاقول نعم يارب رضيت ثم اقبل على فقال انكم تقولون يامعشر أهل العراق ان أرجى آية في كتاب الله تعالى ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا قلت انا لنقول ذلك قال فكانا أهل البيت نقول ان أرجى آية في كتاب الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال هي الشفاعة وقيل هي أعم من الشفاعة وغيرها ويرشد اليه ما أخرجه العسكرى في المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من جلد الابل فلما نظر اليها قال يافاطمة تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة غدا فانزل الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال ابو حيان الاولى العموم لما فى الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعه والخبر المذكور لو سلم صحته لايأبى ذلك نعم عطايا الآخرة أعظم من عطايا الدنيا بكثير فقد روى الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس انه قال أعطاه الله تعالى في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ماينبغى له من الازواج والخدم وأخرج ابن جرير عنه انه قال في الآية من رضا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ان لا يدخل أحد من أهل بيته النار وأخرج البيهقى في شعب الايمان عنه انه قال رضاه صلى الله تعالى عليه وسلم ان يدخل أمته كلهم الجنة وفى رواية الخطيب في تلخيص المتشابه من وجه آخر عنه لايرضى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأحد من أمته فى النار (١) وهذا مانقتضيه

(١) ومن هنا قيل ☆ ألم يرضك الرحمن في سورة الضحى ❊ فحاشاك ان ترضى وفينا معذب ☆ اه منه

شفقته العظيمة عليه الصلاة والسلام على أمته فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا عليهم رؤفا بهم مهتما بأمرهم وقد أخرج مسلم كما في الدر المنثور عن ابن عمر انه صلى الله تعالى عليه وسلم تلا قول الله تعالى في ابراهيم عليه السلام فمن تبعني فانه مني وقوله تعالى في عيسى ان تعذبهم فانهم عبادك الآية فرفع عليه الصلاة والسلام يديه وقال اللهم امتي امتي وبكى فقال الله تعالى ياجبريل اذهب الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقل له انا سنرضيك في امتك ولا نسوءك وفي اعادة اسم الرب مع اضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام مالا يخفى ايضا من اللطف به صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ تعديل لما افاض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من اول امره الى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعود فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا وانشراحا وحبورا ولذا فصلت الجملة. والهمزة لانكار النفي وتقرير النفي على ابلغ وجه كانه قيل قد وجدك الخ ووجدته على ما قال الرضي بمعنى اصبته على صفة ويراد بالوجود فيه العلم مجازا بعلاقة اللزوم وفي مفردات الراغب لوجود اضرب وجود بالحواس الظاهرة ووجود بالقوى الباطنة ووجود بالعقل ومانسب الى الله تعالى من لوجود فبمعنى العلم المجرد اذ كان الله تعالى منزها عن الوصف بالجوارح والآلات وقد فسره بعضهم هنا بالعلم وجعل مفعوله الاول الضمير ومفعوله الثاني يتيما وبعضهم بالمصادفة وجعله متعديا لواحد ويتيما حالا وأنت تعلم ان المصادفة لاتصح في حقه تعالى لانها ملاقاة مالم يكن في علمه سبحانه وتقديره جل شأنه فلابد من التجوز بها عن تعلق علمه عز وجل بذلك واليتم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه والايواء ضم الشيء الى آخر يقال آوى اليه فلانا أي ضمه الى نفسه أي ألم يعلمك طفلا لا أبالك فضمك الى من قام بامرك روى أن عبد المطلب بعث ابنه عبدالله أبا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يمتار تمرا من يثرب فتوفي ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جنين قد أتت عليه ستة أشهر فلما وضعته كان في حجر جده مع أمه فماتت وهو عليه الصلاة والسلام ابن ست سنين ولما بلغ عليه الصلاة والسلام ثماني سنين مات جده فكفله عمه الشفيق الشقيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب وأحسن تربيته صلى الله تعالى عليه وسلم وفي الكشاف ماتت أمه عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه وكان شديد الاعتناء بامره الى ان بعثه الله تعالى وكان يرى منه صلى الله تعالى عليه وسلم في صغره ما لم ير من صغير روى انه قال يوما لاخيه العباس ألا أخبرك عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بما رأيت منه فقال بلى قال انى ضممته الى فكنت لاافارقه ساعة من ليل ولا نهار ولم ائتمن عليه أحدا حتى أنى كنت أنومه في فراشي فامرته ليلة ان يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكراهية في وجهه وكره ان يخالفني فقال ياعماه اصرف وجهك عني حتى أخلع ثيابي انى لاأحب ان تنظر الى جسدي فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش اذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته في فراشي فاذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك فجهدت لانظر الى جسده فما كنت أرى شيئا وكثيرا ما كنت أفقده من فراشي فاذا قمت لاطلبه ناداني هاأنا ياعم فارجع وكنت كثيرا ماأسمع منه كلاما يعجبني وذلك عند مامضى بعض الليل وكنا لانسمي على الطعام والشراب ولا نحمد وكان يقول في أول الطعام بسم الله الاحد فاذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فكنت اعجب منه ولم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون وهذا لعمري غيض من فيض

في المهد يعرب عن سعادة جده ✡ أثر النجابة ساطع البرهان

وقيل المعنى ألم يجدك يتيما أبتك المراضع فآواك من مرضعة تحنو عليك بان رزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك والاول هو الظاهر وقيل غير ذلك مما ستعلمه بعد ان شاء الله تعالى ومن بدع التفاسير على ماقال الزمخشري ان يتيما من قولهم درة يتيمة والمعنى ألم يجدك واحدا في قريش عديم النظير فآواك والاولى عليه ان يقال ألم يجدك واحداً عديم النظير في الخليقة لم يحو مثلك صدف الا مكان فآواك اليه وجعلك في حق اصطفائه وقرأ أبو الاشعث فأوى ثلاثيا فجوز أن يكون من أواه بمعنى آواه وان يكون من أوى له أي رحمه ومصدره اياواية (١) وماوية وماوية وتحقيقه على ماقال الراغب أي رجع اليه بقلبه ومنه قوله ☆ أوانى ولا كفران لله أية ☆ وقوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَىٰ ﴾ عطف على مايقتضيه الانكار السابق كما أشير اليه أو على المضارع المنفي بلم داخل في حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلا عن الشرائع التي لاتهتدي اليها العقول كما في قوله تعالى ما كنت تدري ما الكتاب وقوله سبحانه وان كنت من قبله لمن الغافلين فهداك الى مناهجها في تضاعيف ماأوحى اليك من الكتاب المبين وعلمك مالم تكن تعلم وعلى هذا كما قال الواحدي أكثر المفسرين وهو اختيار الزجاج وروى سعيد بن المسيب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سافر مع عمه أبي طالب الى الشام فبينما هو راكب ناقة ذات ليلة ظلماء وهو نائم جاءه ابليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام فنفخ ابليس نفخة وقع منها بالحبشة ورده الى القافلة فما في الآية اشارة الى ذلك على ماقيل وقيل اشارة الى ماروى عن ابن عباس من انه صلى الله تعالى عليه وسلم ضل وهو صغير عن جده في شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفا من أغنامه فرده لجده وهو متعلق باستار الكعبة يتضرع الى الله تعالى في أن يرد اليه محمدا وذكر له أنه لما رآه أناخ الناقة وأركبه من خلفه فابت أن تقوم فاركبه أمامه فقامت فكانت الناقة تقول ياأحمق هو الامام فكيف يقوم خلف المقتدى وفي ارجاعه عليه الصلاة والسلام الى أهله على يد أبي جهل وقد علم سبحانه منه انه فرعونه يشبه ارجاع موسى عليه السلام الى أمه على يد فرعون وقيل ضل عليه الصلاة والسلام مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله تعالى فسمعوا منادیا ينادي من السماء يامعشر الناس لا تضجوا فان لمحمد ربا لايخذله ولا يضيعه وان محمدا بوادي تهامة عند شجرة السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فاذا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان والاوراق وقيل أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب فضالا على هذه الروايات من ضل في طريقه اذا سلك طريقا غير موصلة لمقصده وضعف حمل الآية على ذلك بان مثله بالنسبة الى ما تقدم لايعد من نعم الله تعالى على مثل نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم التي يمتن سبحانه بها عليه وقيل الضال الشجرة المنفردة في البيداء ليس حولها شجر والمراد أما وجدك وحدك ليس معك أحد فهدى الناس اليك ولم يتركك منفردا وقال الجنيد قدس سره أي وجدك متحيرا في بيان الكتاب المنزل عليك فهداك لبيانه وفيه قرب مامن الاول وقال بعضهم وجدك غافلا عن قدر نفسك فاطلعك على عظيم محلك وقيل وجدك ضالا عن معنى محض المودة فسقاك كاسا من شراب القربة والمودة فهداك به الى معرفته عز وجل وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه كنت ضالا عن محبتي لك في الازل فمننت عليك بمعرفتي وهو قريب من سابقه وقال الحريري أي وجدك مترددا في غوامض معاني المحبة فهداك لها وهو أيضا كذلك وكل ذلك منزع صوفي ورأى أبو حيان في منامه ان الكلام على حذف مضاف والمعنى ووجد رهطك ضالا فهدى بك وهو كما ترى في يقظتك وقوله تعالى

(١) قوله وماوية وماوية الاول مشدد والثاني مخفف اه

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ على نمط سابقه والعائل المفتقر من عال يعيل عيلا وعيلة وعيولا ومعيلا افتقر أى وجدك عديم المقتنيات فاغناك بما حصل لك من ربح التجارة وذلك في سفره صلى الله تعالى عليه وسلم مع ميسرة الى الشام وبما وهبته لك خديجة رضى الله تعالى عنها من المال وكانت ذا مال كثير فلما تزوجها عليه الصلاة والسلام وهبته جميعه له صلى الله تعالى عليه وسلم لئلا يقول قائل ما ينقل على سمعه الشريف عليه الصلاة والسلام وبمال أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وكان أيضا ذا مال فانى به كله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام ما تركت لعيالك فقال تركت الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل بما أفاء عليك من الغنائم وفيه ان السورة مكية والغنائم انما كانت بعد الهجرة وقيل المراد قنعك وأغنى قلبك فان غنى القلب هو الغنى وقد قيل من عدم القناعة لم يفده المال غنى وقيل أغناك به عز وجل عما سواه وهذا الغنى بالافتقار اليه تعالى وفي الحديث اللهم أغنى بالافتقار اليك ولا تفقرنى بالاستغناء عنك وبهذا ألم بعض الشعراء فقال .

ويعجبنى فقرى اليك ولم يكن ☆ ليعجبنى لولا محبتك الفقر

وشاع حديث الفقر فخرى وحمل الفقر فيه على هذا المعنى وهو على ماقال ابن حجر باطل موضوع وأشد منه وضعا وبطلانا مايذكره بعض المتصوفة اذا تم الفقر فهو الله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا وقد خاضوا فى بيان المراد به بما لايدفع بشاعته بل لايقتضى استقامته وقيل عائلا أى ذا عيال من عال يعول عولا وعيالة كثر عياله ويحتمل المعنيين قول جرير

الله نزل في الكتاب فريضة ☆ لابن السبيل وللفقير العائل

ولعل الثانى فيه أظهر ورجح الاول في الآية بقراءة ابن مسعود عديما وانه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيال في أول أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وقرأ اليمانى عيلا كسيد بشد الياء المكسورة هذا وذكر عصام الدين في هذه الآيات انه يحتمل أن يراد باليتيم فاقد المعلم فان الآباء ثلاثة من علمك ومن زوجك ومن ولدك ويناسبه حمل الضلال على الضلال عن العلم وحمل العيال أى على تفسير عائلا بذا عيال على عيال الامة الطالبة منه معرفة مصالح الدين مع احتياجه الى المعرفة فاغناه الله تعالى بالوحى اليه عليه الصلاة والسلام ولا يخفى ما فيه وحذف المفعول فى الافعال الثلاثة لظهور المراد مع رعاية الفواصل وقيل ليدل على سعة الكرم والمراد آواك وآوى لك وبك وهداك ولك وبك وأغناك ولك وبك وظاهر الفاء مع تلك الافعال تأبى ذلك وأطال الامام الكلام في الآيات وأتى فيها بغث وسمين ولولا خشية الملل لذكرنا ما فيه ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فلا تستذله كما قال ابن سلام وقريب منه قول مجاهد لاتحقره وقال سفيان لاتظلمه بتضييع ماله وفى معناه ما قيل لاتغلبه على ماله ولعل التقييد لمراعاة الغالب والاولى حمل القهر على الغلبة والتذليل معا بان يراد به التسلط بما يؤذى أو باستعمال المشترك في معنييه على القول بجوازه وفي مفردات الراغب القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل واحد منهما وقرأ ابن مسعود والشعبى وابراهيم التيمى فلا تكهر بالكاف بدل القاف ومعناه على مافى البحر فلا تقهر وفي تهذيب الازهرى الكهر القهر والكهر عبوس الوجه والكهر الشتم واختار بعضهم هنا أوسطها فالمعنى فلا تعبس في وجهه وهو نهى عن الشتم والقهر على ما سمعت من معناه من باب الاولى وايا ما كان ففى الآية دلالة على الاعتناء بشأن اليتيم وعن ابن مسعود مرفوعا من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة وعن عمر رضى الله تعالى عنه مرفوعا أيضا ان اليتيم اذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته يا ملائكتى من ابكى هذا اليتيم

الذى غيب أبوه فى التراب فيقول الملائكة أنت أعلم فيقول الله تعالى يا ملائكتى انى أشهدكم ان على لمن أسكته وارضاه أن أرضيه يوم القيامة فكان عمر رضى الله تعالى عنه اذا رأى يتيما مسح رأسه وأعطاه شيئاً ولم يصح فى كيفية مسحه شىء والرواية عن ابن عباس فى ذلك قد قيل فيها ماقيل وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال أنا وكافل اليتيم كهاتين اذا اتقى الله عز و جل واشار بالسبابة والوسطى الى غير ذلك من الاخبار ﴿ وأمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ أى فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشىء أورده بقول جميل وأريد به عند جمع السائل المستجدى الطالب لشىء من الدنيا وتدل الآية على الاعتناء بشأنه أيضا وعن ابراهيم ابن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وعن ابراهيم النخعى السائل يريد الآخرة يجىء الى باب أحدكم فيقول أتبعثون الى أهليكم بشىء وشاع حديث للسائل حق وان جاء على فرس وقد قال فيه الامام أحمد كما فى تمييز الطيب من الخبيث لا أصل له وأخرجه أبو داود عن الحسين ابن على رضى الله تعالى عنهما موقوفا وسكت عنه وقال العراقى سنده جيد وتبعه غيره وقال ابن عبد البر انه ليس بالقوى وعول كثير على ماقال الامام أحمد وفى معناه احتمالان كل منهما يؤذن بالاهتمام بأمر السائل وروى من طرق عن عائشة وغيرها الوصدق السائل ما أفلح من رده وهو أيضا على ماقال ابن المدينى لا أصل له وقال ابن عبد الرحيم أسانيده ليست بالقوية نعم أخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى امامة مرفوعا ما يقرب منه وهو لولا ان المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم ولم أقف على من تعقبه . ثم النهى على النهر على ماقالوا اذا لم يلح فى السؤال فان ألح ولم ينفع الرد اللين فلا بأس بالزجر وقال أبو الدرداء والحسن وسفيان وغيرهم المراد بالسائل هنا السائل عن العلم والدين لا سائل المال ولعل النهى عن زجره على القول الأول يعلم بالاولى ويشهد للاولوية أنه أنه لاوعيد على ترك أعطاء المستجدى لمن يجد مايستجديه بخلاف ترك جواب سائل العلم لمن يعلم ففى الحديث من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار وسيأتى ان شاء الله تعالى ماقيل من ان الظاهر الثانى من القولين ﴿وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فان التحدث بها شكرها كما قال عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والفضيل بن عياض وأخرج البخارى فى الأدب وأبو داود والترمذى وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقى والضياء عن جابر بن عبد الله مرفوعا من أعطى عطاء فوجد فليجز به فان لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور ولذا استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير اذا لم يرد به الرياء والافتخار وعلم الاقتداء به بل بعض أهل البيت رضى الله تعالى عنهم حمل الآية على ذلك أخرج ابن أبى حاتم عن مقسم قال لقيت الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما وأرضاهما فقلت أخبرنى عن قول الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث فقال الرجل المؤمن يعمل عملا صالحا فيخبر به أهل بيته وأخرج ابن أبى حاتم عنه رضى الله تعالى عنه أنه قال فيها اذا أصبت خيرا فحدث اخوانك والظاهر أن المراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم من فنون النعم التى من جملتها ماتقدم وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسيرها بالنبوة ورووا عنه أيضا تفسيرها بالقرآن ووافقه فى الاول محمد بن اسحق وفى الثانى الكلبى وعليهما المراد بالتحديث التبليغ ولا يخفى أن كلا التفسيرين غير مناسب لما قبل وهذه الجمل الثلاث مرتبة على ما قبلها فقيل على اللف والنشر المشوش وحاصل المعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك وهداك واغناك فمهما يكن من شىء فلا تنس نعمة الله تعالى عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله تعالى فتعطف على اليتيم وترحم على السائل فقد ذقت اليتم والفقر وقوله تعالى وأما بنعمة الخ فى مقابلة قوله سبحانه وجدك ضالا فهدى لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلام من

الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم ولم يراع الترتيب لتقديم حقوق العباد على حقه عز وجل فانه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين وقيل لتقديم التخلية على التحلية أو للترقي أو لمراعاة الفواصل ونظر في كل ذلك وقال الطيبي الظاهر ان المراد بالسائل طالب العلم لا المستجد وعليه لامانع من كون التفصيل على الترتيب فيقال انه تعالى ذكر أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم على وفق الترتيب الخارجي بان يراد بهدايته عليه الصلاة والسلام مايعم توفيقه للنظر الصحيح في صباه فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم موفقا لذلك ولذا لم يعبد عليه الصلاة والسلام صنما أو يراد باغنائه ماكان بعد البعثة ثم فصل سبحانه على ذلك الترتيب فجعل عدم قهر اليتيم في مقابلة ايوائه تعالى له عليه الصلاة والسلام في يتمه وعدم زجر السائل طالب العلم والمتعلم منه في مقابلة هدايته له والتحدث بالنعمة في مقابلة الغنى وان كانت النعمة شاملة له ولغيره وآثر سبحانه لفظ على بخبر قيل ليكون ذكر النعمة منه عليه الصلاة والسلام حديثا لاينساه ويوجده ساعة غب ساعة والله تعالى أعلم وندب التكبير عند خاتمة هذه السورة الكريمة وكذا مابعدها الى آخر القرآن العظيم فقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن البزي المقرئ قال سمعت عكرمة بن سليمان يقول قرأت على اسماعيل بن قسطنطين فلما بلغت والضحى قال كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم فاني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت والضحى قال كبر حتى تختم وأخبره عبد الله ابن كثير أنه قرأ على مجاهد فامره بذلك وأخبره ان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره ان أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أمره بذلك وأخبره ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بذلك وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام فرحا بنزول الوحي بعد تأخره وبطئه حتى قيل ماقيل هذا وعلى ذلك عمل الناس اليوم والحمد لله رب العالمين

سورة ألم نشرح

وتسمى سورة الشرح وهي كما روى عن ابن الزبير وعائشة مكية وأخرج ذلك ابن الضريس والنحاس والبيهقي وابن مردويه عن ابن عباس وفي رواية عنه زيادة نزلت بعد الضحى وزعم البقاعي انها عنده مدنية وفي حديث طويل أخرجه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ماهو ظاهر في ان قوله تعالى فيها فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا نزل بالمدينة لكن في صحة الحديث توقف وآيها ثمان بالاتفاق وهي شديدة الاتصال بسورة الضحى حتى انه روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز انهما كانا يقولان هما سورة واحدة وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم وعلى ذلك الشيعة كما حكاه الطبرسي منهم قال الامام والذي دعا الى ذلك هو ان قوله تعالى ألم نشرح كالعطف على قوله تعالى الم يجدك يتيما وليس كذلك لان الاول كان عند اغتمام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من ايذاء الكفرة وكانت الحالة حال محنة وضيق صدر والثاني يقتضي ان يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان وفيه نظر والحق ان مدار مثل ذلك الرواية لا الدراية والمتواتر كونهما سورتين والفصل بينهما بالبسملة نعمهما متصلتان معنى جدا ويدل عليه مافي حديث الاسراء الذي أخرجه ابن أبي حاتم ان الله تعالى قال له عليه الصلاة والسلام يامحمد ألم أجدك يتيما فآويت وضالا فهديت وعائلا فاغنيت وشرحت لك صدرك وحططت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك فلا أذكر الا ذكرت معي الحديث

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الشرح في الاصل الفسح والتوسعة وشاع استعماله